يـا مـحـمـلـيـن الـعـنـبْ تـحـت الـعـنـب تـفـاح
كـلْ مـن حـبـيـبـو مـعـو وانـا حـبـيـبـي راح
يـا رب نـسـمـة هـوا تـرد الـولِفْ لِيّـا

اوردتُ هذه النماذج من مئات الابيات الاخرى، بل الاف الابيات، مع ملاحظة اختلاف رواية بعض الابيات من باحث لآخر، كما اننا نلاحظ انها تجمع جفرا و«عاليادي» و«يمّا مويل الهوى»، ونلاحظ ان النماذج الثلاثة الاخيرة لا تلتزم «جفرا وياها الربع» في مطلعها، كما ان النموذج الثاني هو الوحيد الذي يبدأ بـ«عاليادي، اليادي»، في حين ان رقم ١ و٣ من «عاليادي» هي مجرد اغنيات شعبية مشهورة ولكنها منفصلة عن عائلة «عاليادي»، وقرابتها مع «الجفرا» هي قرابة اللحن فقط، وحتى اللحن يمكننا التشكيك فيه فاذا ما نظرنا الى رقم ١ «مريت عن دارهم...» سنتذكر ان فيروز تغنيه على وزن «هيهات يا بو الزلف»، في حين تغنيه مغنية شعبية اردنية تدعى ميسون الصنّاع بطريقة مختلفة «مرّيت عن دارهم.... بايدي قدح رايب»، وبوزن مختلف عن «عاليادي».

وهذه الملاحظات تؤكد ان هذه الانواع قد بدأ بعضها ينشق عن البعض الآخر ويحاول ان يستقل استقلالا شبه كامل.

٥ ــ شهادات ميدانية من اهالي كويكات

التراث «ليس مخزونا ماديا في المكتبات، وليس كيانا نظريا مستقلا بذاته؛ فالاول وجود على المستوى المادي، والثاني وجود على المستوى الصوري فان التراث، في الحقيقة، مخزون نفسي عند الجماهير»[٣٢]. هذا عن التراث المكتوب في كتب قديمة. اما الغناء الشعبي، فهو قد كان موجودا في حلقات الدبكة، وفي ليالي السمر في الماضي، ولكنه ليس مجرد ذكرى عبرت، انه موجود ــ ماديا ــ على افواه الناس الان؛ وهو قبل كل شيء ليس تواصلا مع الماضي الميت، بل مع الحاضر المتطلع للمستقبل. وهو اكثر اثارة من التراث المكتوب، لانه يجبرك على الانفعال معه.

هكذا ظلت «جفرا وياها الربع» تنتقل على افواه سكان قرية كويكات، قرب عكا، قبل عام ١٩٤٨، الى ان وصلت الى المخيم الفلسطيني، وظلت تتردد وما زالت حتى الان، من الوطن الى المنفى وبالعكس، لتدلل على التواصل.

لقد التقيت «احمد عزيز علي حسن» من اهالي قرية كويكات، في مخيم عين الحلوة، من مواليد عام ١٩١٥، تقريبا، وفق «وثيقة اللاجئين الفلسطينيين» التي تصدرها الحكومة اللبنانية، واجريت مقابلات شخصية معه في مخيم عين الحلوة، في اواخر شباط (فبراير) عام ١٩٨٢. على شريطين؛ وذلك بحضور صالح الحسن (ابو عبد الله) وابو محمد وشخص ثالث من كويكات. وحضر المقابلة، كذلك، احد ابناء احمد عزيز، وله ثلاثة ابناء (٣٣ سنة؛ ٢٦ سنة و ٤ سنوات) كما اخبرني. واحمد عزيز، كما رأيته، انسان هادىء ووقور وعلى وجهه مسحة من الاسى والغموض. وخلال الحوار استمر يجيب على الاسئلة دون ان يقاطعنا الا مرة واحدة للصلاة، وقد غنى معظم النصوص، وهو يمتلك صوتا حنونا وجميلا، حتى وهو في هذا السن.